٢. نصوص في القصة القصيرة

أ. كلمة في القصة القصيرة/ الأقصوصة:

القصة القصيرة حديثة النشأة – دون شك – باعتبار ما تشتمل عليه من عناصر فنية متكاملة النسج ومعبرة عن واقع ما أو فكرةٍ ما.. وإن عرفت الأمم، ومنها العربية، أنماطاً حكائية في الشعر والنثر.. أو أنماطاً قصصية مطولة.. والقص عادة هو الحكي.

وقد عرف العرب أنماطاً من القص في كتبهم العديدة، كما نجده في كتب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، كـ(البخلاء) و(الحيوان)، وكتاب الأغاني للأصفهاني (ت ٣٥٤هـ).. وكذلك نجد أنماطاً حكائية في (المقامات).. فالقوالب القصصية الموظفة لأهدافٍ ما عند هذا الكاتب أو ذاك منثورة في كتب عديدة، وقد اشتملت على عناصر القصة الفنية من جهة الأداء اللغوي بنوعيه: (الحوار بما فيه المونولوج، والسرد)، ومن جهة الشخصيات بكل أشكالها الرئيسة النامية والثانوية والبسيطة، وكيفية رسمها بدقة تجعلها متناسقة مع الحوار والحدث، ومتلبسة بهما في الزمان والمكان.. فالحدث هو المسار الذي يُكسب القصة تناسقها مع تفاعله بأبعاد الشخصية للوصول إلى الحبكة دون وهن أو ضعف.. وإن كان هناك حدث داخلي أو خارجي..

وهذا يفرض علينا أن نشير بصورة مركزة إلى الفوارق الدقيقة بين القصة القصيرة Short Story والقصة الطويلة أو الرواية Story or Novel.. وفق ما يلي:

١. تكتفي القصة القصيرة بخلق جوٍّ فكري نفسي اجتماعي قصصي في أعداد الكلمات القليلة التي تستوعب صفحة أو اثنتين، بعكس القصة الطويلة أو الرواية التي تمتد على صفحات كثيرة، وتعبر عن أجواء فكرية واجتماعية ونفسية.. متكاملة الأبعاد.

٢. تستند القصة القصيرة إلى نظرة دقيقة فاحصة لموضوع ما، فتتعمق به في اتجاه واحد بكل إيجاز وتركيز وتكثيف للمعاني والصور، على حين تقدم القصة الطويلة أو الرواية نظرة شمولية للحياة بجوانبها المتعددة، ويظل الفارق بين الرواية والقصة الطويلة أن الرواية مؤلفة من مجموعة قصص مرتبطة بمحور ثابت ومستمر من أولها إلى نهايتها.

٣. حينما تقوم القصة القصيرة على مبدأ التكثيف والإيجاز فإنها تندفع بسرعة إلى الهدف الذي تبنى عليه، دون تفصيل بالأحداث أو المواقف، بعكس القصة الطويلة أو الرواية التي تتعدد فيها الصراعات، ثُمَّ المواقف والأحداث.. وتؤدي وظائف عديدة في الوقت الذي يمكنها أن تصل إلى جملة أهدافها في وقت واحد، فالقصة القصيرة بنت اللقطة السريعة؛ ولهذا

القصة القصيرة زمانها محدد و مكانها محدد ، أما الرواية فبيئاتها متعددة و تحتاج إلى امتداد زمني أكبر منه في القصة القصيرة

شاعت قوالبها هذه الأيام.

٤. يظل الزمان والمكان فنياً ملتصقين ببعد محدد سواء كانا في إطار داخلي نفسي أم خارجي موضوعي.. أياً كانت الفكرة، فهناك تركيز في اتجاه الزمان والمكان.. على حين تمتد الرواية أو القصة الطويلة في الزمان وتحتاج إلى فسحة في المكان، مع التعدد والتنوع في البيئتين الزمانية والمكانية، على اختلاف واتفاق.. فهي تلم بكل جزئية في إطار ذلك.

٥. تتسم لغة القصة القصيرة بالشفافية والشاعرية والإيقاع السريع الخاطف، وإن استعملت أصناف الحوار كلها أو جزءاً منها.. على حين تحتكم الرواية إلى الشرح والتفصيل والإطناب واللغة الإيقاعية التأملية الهادئة المتأملة التي يكثر فيها الفضول، وإن وظف بشكل جيد.. وهذا لا يعني أن تتحول الرواية أو القصة إلى لقطات فاقدة للحيوية والحضور، ومبتلاة بالسرد السكوني والبرودة والثرثرة في القص.. على أن تكون اللغة في كل أشكالها متسقة مع الحدث والشخصيات.

فالقصة القصيرة تسعى إلى إضاءة موقف ما، أو فكرة ما؛ بفاعلية عالية تتركها س المتلقي بواسطة حوار متلاحم وشفاف ومثير ومتناسق..

ولعل قصة (البنفسجة الطموح) تحقق لنا مثالاً لذلك كله، فضلاً عن القصة صيرة المترجمة عن الهندية كما سيأتي في قسم الترجمة فارجع إليها.

ب. نص في القصة القصيرة

البنفسجة الطموح

جبران خليل جبران(١٠)

أ. نص القصة:

كان في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا، طيبة العَرْف، تعيش قانعة بين أترابها وتتمايل فرحة بين قامات الأعشاب.

ففي صباح، وقد تكللت بقطر الندى، رفعت رأسها ونظرت حواليها، فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء، ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد. ففتحت البنفسجة ثغرها الأزرق وقالت متنهدة: ما أقل حظي بين الرياحين، وما أوضع مقامي بين الأزهار!! فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة، حقيرة، أعيش ملتصقة بأديم الأرض، ولا أستطيع أن أرفع قامتي نحو ازرقاق السماء، أو أحول وجهي نحو الشمس متلما تفعل الورود.

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثُمَّ قالت: ما أغباك بين الأزهار!! فأنت في نعمة تجهلين قيمتها، فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين. فخلي عنك هذه الميول العوجاء والأماني الشريرة وكوني قنوعاً بما قسم لك، واعلمي أن من خفض جناحه رفع

---

(١٠) جبران خليل جبران، أديب مهجري، ولكنه عُدَّ من عباقرة العصر الحديث في الأدب والرسم، وأكثرهم شهرة في الشرق والغرب، وُلد في قرية جبلية في لبنان تسمى (بشرّي) سنة (١٨٨٣م)، وتعلم في بيروت، ثُمَّ رحل إلى باريس، وهاجر بعدها إلى الولايات المتحدة سنة (١٩١٢م)، وعاش فيها مرارة الغربة وقسوة الحياة وشدة الفقر.. وقد زاد من مشكلاته موت شقيقته ثُمَّ أخيه ثُمَّ أمه.. أسس في الولايات المتحدة الأمريكية مع مجموعة من زملائه رابطة أدبية سموها (الرابطة القلمية)، واختير عميداً لها، وكان من أبرز أعضائها الشاعر إيليا أبو ماضي والناثر المبدع ميخائيل نعيمة... ثُمَّ تحولت حياة الفقر والعوز لديه إلى شكل من أشكال القوة الساخرة، فألف عدداً من الكتب مثل: (المواكب)، و(العواصف)، و(دمعة وابتسامة)، و(الأجنحة المتكسرة)، و(عرائس المروج)... ثُمَّ كتب باللغة الإنكليزية كتباً أخرى أكثرها شهرة كتابه: (النبي) الذي طبع منه الآلاف المؤلفة من النسخ.. يُعدُّ جبران قاصاً وكاتباً فضلاً عن كونه رساماً ومفكراً ومبدعاً.. توفي جبران في نيويورك عام (١٩١٣م)، ثُمَّ نقلت رفاته إلى مسقط رأسه في لبنان.

قدره، وأن من طلب المزيد وقع في النقصان.

فأجابت البنفسجة قائلة: أنت تعيّرينني أيتها الوردة لأنك حاصلة على ما أتمناه؛ وتغمرين حقارتي بالحِكَم لأنك عظيمة. وما أمرُّ مواعظ السعداء في قلوب التاعسين، وما أقسى القوي إذا وقف خطيباً بين الضعفاء!!

وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ثُمَّ رفعت صوتها قائلة: ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك، عذبة بصغرك، شريفة بمسكنتك، فهل استهوتك المطامع القبيحة أم سلبت عقلك العظمة الفارغة؟!

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف: أيتها الأمُّ العظيمة بجبروتها، الهائلة بحنانها، أضرع إليك بكل ما في قلبي من التوسل، وما في روحي من الرجاء، أن تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً.

فقالت الطبيعة: أنت لا تدرين ما تطلبين، ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية، فإذا رفعت قامتك وبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم.

فقالت البنفسجة: حوِّلي كياني البنفسجي إلى وردة مديدة القامة، مرفوعة الرأس.. ومهما يحلُّ بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي.

فقالت الطبيعة: لقد أجبت طلبك أيتها البنفسجة الجاهلة المتمردة، ولكن إذا دهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من نفسك..

ومدَّت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت بلحظة إلى وردة زاهية متعالية فوق الأزهار والرياحين.

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبَّد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالإعصار، ثُمَّ هاجت سواكن الوجود فأبرقت وأرعدت، وأخذت تحارب تلك الحدائق والبساتين بجيش عرمرم من الأمطار والأهوية، فكسرت الأغصان، ولوت الأنصاب بالأرض أو تختبئ بين الصخور. أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج الأعاصير ما لم تقاسه حديقة أخرى، فلم تمرّ العاصفة وتتقشع الغيوم حتى أصبحت أزهارها هباء منثوراً، ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة من البنفسج المختبئة بجدار الحديقة.

ورفعت إحدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حلَّ بأزهار الحديقة وأشجارها فابتسمت فرحاً ثُمَّ نادت قائلة: ألا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تيهاً وعجباً؟!، وقالت بنفسجة أخرى: نحن نلتصق بالتراب، لكننا نسلم من غضب العواصف والأنواء، وقالت بنفسجة ثالثة: نحن حقيرات الأجسام غير أن الزوابع لا تستطيع التغلب علينا.

ونظرت إذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالأمس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت أوراقها الرياح، وألقتها على

الأعشاب المبللة فباتت كقتيل أرداه العدو بسهم، فرفعت مليكة البنفسج قامتها، ومدّت أوراقها، ونادت رفيقاتها قائلة: تأمّلن، وانظرن يا بناتي، انظرن إلى البنفسجة التي غرّتها المطامع فتحولت إلى وردة لتتشامخ ساعة ثُمّ هبطت إلى الحضيض، ليكن هذا المشهد أمثولة لكنّ.

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة، واستجمعت قواها الخائرة، وبصوت منقطع قالت: ألا فاسمعن أيتها الجاهلات القانعات الخائفات من العواصف والأعاصير!! لقد كنت بالأمس مثلكن أجلس بين أوراقي الخضراء مكتفية بما قسم لي، وقد كان الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة وأهويتها، ويجعل كياني محدوداً بما فيه من السلامة، متناهياً بما يساوره من الراحة والطمأنينة، ولقد كان بإمكاني أن أعيش نظريتكن ملتصقة بالتراب حتى يغمرني الشتاء بثلوجه وأذهب كمن ذهب قبلي إلى سكينة الموت والعدم قبل أن أعرف من أسرار الوجود ومخبئاته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الأرض، لقد كان بإمكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الأمور التي تعلو بطبيعتها عن طبيعتي، ولكنني أصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم: (إنّما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود). فتمردت نفسي على نفسي، وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني، وما زلت أتمرد على ذاتي وأتشوق إلى ما ليس لي حتى انقلب تمردي إلى قوة فعالة، واستحال شوقي إلى إرادة مبدعة، فطلبت إلى الطبيعة – وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لأحلامنا الخفية – أن تحولني إلى وردة ففعلت، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها بأصابع الميل والتشويق.

وسكتت الوردة هنيهة، ثُمّ زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوق: لقد عشت ساعة كملكة، لقد نظرت إلى الكون من وراء عيون الورود، وسمعت همس الأثير بآذان الورود، ولمست ثنايا النور بأوراق الورود، فهل بينكن من تستطيع أن تدّعي شرفي؟!

ثُمّ لوت عنقها، وبصوت يكاد يكون لهاثاً قالت: أنا أموت الآن، أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي، أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه، وهذا هو قصد الحياة، هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الأيام والليالي.

وأطبقت الوردة أوراقها، وارتعشت قليلاً، ثُمّ ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية – ابتسامة من حققت الحياة أمانيه، ابتسامة النصر والتغلب، ابتسامة الله.

الطين(٢١)

إيليا أبو ماضي(٢٢)

نسيَ الطينُ ساعةً أنهُ طينْ

ـنٌ حقيرٌ فصالَ تيهاً وعربدْ

وكسا الخزُّ جسمَهُ فتباهى

وحوى المالَ كيسُهُ فتمرّدْ

يا أخي لا تَمِلْ بوجهكَ عنّي

ما أنا فحمةٌ ولا أنتَ فرقدْ

أنتَ لم تصنَعِ الحريرَ الذي تلـ

ـبسُهُ واللؤلؤُ الذي تتقلّدْ

أنتَ لا تأكلُ النُضارَ إذا جعـ

ـتَ ولا تشربُ الجُمانَ المنضّدْ

إيليا أبو ماضي ـ شاعر المهجر الأكبر: ٣١٨ ـ ٣٢٢.

إيليا أبو ماضي (١٨٨٩ ـ ١٩٥٧م) هو من أغزر شعراء المهجر الشمالي ، وهو من أعضاء (الرابطة القلمية)، ولد في قرية المحيدثة بجبل لبنان، ر إلى الإسكندرية سنة ١٩٠٠م، وكان يبيع السجائر نهاراً، ويتعلم ليلاً، هاجر مريكا الشمالية في عام ١٩١١م، وأصدر في نيويورك جريدة (السمير)، وله شعر (تذكار الماضي)، و(الجداول)، و(الخمائل)، و(تبر وتراب)، والدراسات ذا الشاعر كثيرة، وبخاصة الدراسات التي تتناول الشعر المهجري.

أنـت في البُرْدَةِ المُوَشّـاةِ مثلـي

٦. في كساني الرديء تشقى وتسعد

لـك في عـالم النهار أمـان

٧. ورؤىً واللظـلامُ فوقـكَ يَمـتدّ

ولقلبـي كمـا لقلـبك أحـلا

٨. مُ حِسـانٌ فإنّـه غـيرُ جلمـدْ

***

٩. أمانـيَّ كلّهـا مـن تـراب

وأمانـيك كلهـا مـن عسـجد؟!

١٠. ولمانـيَّ كلهـا للتلاشـي

ولمانـيك للخلـود المؤكّـدْ؟!

١١. لا.. فهـذي وتلـك تأتـي وتمضـي

كذوبهـا، وأيُّ شـيءٍ يؤبَّـدْ؟!

١٢. أيهـا المزدهـي.. إذا مسّـكَ السُّـقْـ

ـمُ ألا تشـتكي؟ ألا تتـنهّدْ؟

١٣. وإذا راعـك الحبيـب بهجـر

وَدَعـتْكَ الذكـرى، ألا تتـنهّدْ؟

١٤. أنـــت مثلـــي يَـبَشُ وجهـــك للـــنعـ

ـــمى وفـــي حالـــة المصـــيبة يكمـــد

١٥. أدموعـــي خَـــلٌ ودمعـــك شـــهدٌ؟

وبكائـــــي ذُلٌ، ونوحُـــــك ســـــؤدَدُ؟

١٦. وابتســـامي الســـرابُ لا رَيَّ فـــيه؟

وابتســـاماتك اللآلـــي الخُـــرَّد؟

١٧. فلـــكٌ واحـــد يظـــلُ كليـــنا

حـــارَ طرفـــي بـــه وطـــرفك أرمـــدْ

١٨. قمـــر واحـــدٌ يطـــلُ عليـــنا

وعلـــى الكـــوخ والبـــناء الموطَّـــدْ

١٩. إن يكـــن مشـــرقاً لعينـــيك إنـــي

لا أراه مـــن كُـــوَّةِ الكـــوخ أســـودْ

٢٠. الـــنجوم التـــي تـــراها أراهـــا

حيـــن تخفـــى وعـــندما تـــتوقد

٢١. لستَ أدنـى – على غـناك – إليها

وأنـا – مَـعْ خَصَاصَـتي – لستُ أبعـدْ

***

أنـــت مثلـــي، مـــن الـــثرى وإلـــيه

٢٢. فلمـــاذا، يـــا صـــاحبي، الثـــنِهْ وَالصَّـــدّ؟

كنـــتَ طفـــلاً إذ كنـــتُ طفـــلاً وتغـــدو

٢٣. حيـــن أغـــدو شـــيخاً كبـــيراً أرِدْ

لســـتُ أدري مـــن أيـــن جئـــتُ ولا مـــا

٢٤. كنـــتُ، أو مـــا أكـــونُ، يـــا صـــاح، فـــي غدِ!!

أفـــــتدري؟ إذن فخـــــيِّر، وإلا

٢٥. فلمـــــاذا تظـــــنُّ أنـــــك أوحـــــدْ؟

الـــكَ القصـــرُ دونـــه الحَـــرَسُ الشـــا المرجع بالسلاح

٢٦. كـــي ومـــن حولـــه الجـــدار المشـــيَّدْ

فامـــنع اللـــيل أن يمـــدَّ رِواقـــاً

٢٧. فوقـــــه، والضـــــبابَ أن يتلـــــبَّدْ

وانظـــر الـــنور كـــيف يدخـــل لا يطـــ

٢٨. ـلـــب إذنـــاً، فمـــا له لـــيس يُطـــردْ؟

مـــرقد واحـــد نصـــيبك مـــنه

٢٩. أفتـــدري كـــم فيـــك لِلـــذَّرِّ مـــرقدْ؟

٤٦. أجميلٌ؟ ما أنت أبهى من النور

دة ذاتِ الشذا ولا أنت أجودْ

٤٧. أم عزيزٌ؟ وللبعوضة من خدْ

يك قوتٌ، وفي يديكَ المهندْ

٤٨. أم غنيٌّ؟ هيهاتَ تختال لولا

دودة القزّ بالحُباء المبدّدْ

٤٩. أم قويٌّ؟ إذنْ مُرِ النومَ إذ يغـ

ـشاكَ والليل عن جفونك يرتدْ

٥٠. وامنع الشيبَ أنْ يلمَّ بفوديـ

ـكَ .. ومُرْ تلبثِ النضارةُ في الخدْ

٥١. أعليمٌ؟ فما الخيالُ الذي يطـ

ـرق ليلاً؟ في أي دنيا يُولّدْ؟

٥٢. ما الحياةُ التي تَبِينُ وتخفى؟

ما الزمانُ الذي يُذَمُّ ويُحمَدْ؟

٥٣. أيها الطينُ لستَ أنقى وأسمى

من ترابٍ تدوسُ أو تتوسّدْ

إضاءة على النص:

أولاً: المستوى الفكري:

هذه القصيدة من بحر الخفيف، وشطره العروضي: (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن)، وقافيتها موحَّدة الرويّ، وهي من سبعة مقاطع غير متساوية، وتتكوّن من سبعة وخمسين بيتاً، وهي من القصائد الطويلة نسبياً، وذلك لأن موضوعها من أهم الموضوعات الإنسانية في الشعر العربي، فهو يؤكّد أن الإنسان واحد بطبيعته، فالفقير هو أخو الغني وندُّه وشبيهه في هذه الحياة، والفرق بينهما هامشيٌ وعارض، فهذا يمتلك الأموال الطائلة وذاك خلوٌ منها، ولكنَّ نشأة الإنسان وأحلامه وطموحاته وإحساساته وآلامه واحدة، وهي قصيدة حجاجية من الطراز الأول.

ففي المقطع الأول خطابٌ موجَّه من الإنسان الفقير إلى أخيه الإنسان الغني ذي الصلف والجبروت والعنفوان، وهو يشبهه في المطلع بالطين الذي كسا الخزُّ جسمه، ولكنَّه يظل بحاجة ماسَّة إلى الإنسان الفقير ليقوم على خدمته، وهو بحاجة إلى الفلاح ليؤمن له الطعام، وبحاجة إلى العامل ليؤمن له مستلزماته، ولذلك فإن هؤلاء الفقراء يقدّمون للحياة أكثر مما يقدَّم، فيستنكر الشاعر منه على لسان الفقير هذا الصلف والتيه، ويخاطبه بلهجة رقيقة مبتدئاً بعبارة (يا أخي) دليلاً على المساواة بين الناس كافة:

يا أخي لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمة ولا أنت فرقدْ

وفي المقطع الثاني تبيان من الإنسان المعدم على لسان الشاعر أن الطبيعة الإنسانية واحدة، وامتلاك الإنسان لثرواتها لا يغيّر من صفائها وجمالها بعيني المعدم والغني، لأن حاليهما إزاء المصاعب والنكبات واحدة، فالأماني واحدة والألم واحد والحب والدموع والابتسامات واحدة أيضاً، وفي هذا المعنى يقول الشاعر على لسان الفقير المعدم:

قمر واحدٌ يطلُّ علينا وعلى الكوخ والبناء الموطَّدْ

إن يكن مشرقاً لعينيك إني لا أراه من كوة الكوخ أسودْ

وإذا كان المقطع الثالث قصيراً بالقياس إلى سواه، فإنَّه أدّى الفكرة المطلوبة بشكل جيد، فهو يذهب إلى أن الطبيعة الإنسانية واحدة في الولادة والطفولة

والشباب والشيخوخة والموت، وقد عبَّر عن بعض ذلك في البيت الأول من المقطع:

أنـت مثلـي، مـن الـثرى وإلـيه فلماذا، يا صاحبي، التيه والصد؟

ثُمَّ يأتي المقطع الرابع ليدخل الشاعر في التفصيلات والحجج والأمثلة، فقصر الغني مثلاً لا يستطيع باتساعه وعظمة بنائه أن يمنع الليل أو الضباب أو المطر أو الهزات التي تصيب ما حوله من الاقتراب منه، فالقصر العظيم كالكوخ الحقير إزاء عوامل الزمن، وكذا شأن الروضة الغنَّاء التي صنعها هذا الغني ليتمتع بمباهجها، فهي لا تستطيع أن تمنع الرياح العاصفة من الاقتراب منها، حتى أن طيور هذه الروضة وأشجارها وأزاهيرها لا تأتمر بأمره كما جاء في المقطع الخامس:

إن طـير الأراك لـيس يبالـي أنـت أصـغيتَ أم أنـا إنْ غـرَّدْ

والأزاهير ليس تسخرُ من فقـ ـري، ولا فـيك للغـنى تـتودَّدْ

وهذا النهر الذي يدَّعي الغنيُّ بأنه يملكه، لا يأتمر بأمره، وإنَّما هو مُلك للنسيم والعصافير والشهب التي تستحم فيه، وهو مُلك الأشجار التي ترتوي من مائه، ثُمَّ هو كان قبل هذا الغني، وسيبقى بعده إلى ما شاء الله. أما الحقل الذي يدَّعي الغني ملكيته في المقطع الأخير فهو مُلكٌ للنحل الذي يجني شهده منه، وهو مُلك للنمل الذي يعيش فيه، والغني في شرعة هذه الكائنات دخيل على ملكية هذا الحقل، بل هو من وجهة نظرها لصٌ يسرق ثماره، وليس ذلك وحسب، وإنَّما هو لا يمتلك جسده نفسه، فهذه البعوضة تقتات من خدَّيه، مع أنَّه القوي، وهي تسخر من سيفه الذي يحمله ولا تبالي به. وهذا النوم الذي يغشاه، وهو غير قادر على طرده، وعلامات الشيب والشيخوخة تجتاح فوديه وخدَّيه دون أن تحسب له أي حساب، ولذلك كانت هذه الدعوة الإنسانية الحارة في هذه القصيدة.

ثانياً: المستوى الفني:

تمثل هذه القصيدة الروحانية الشرقية، والنزعة الإنسانية، خير تمثيل، وهذا ما فقده الشاعر في حضارة الغرب الآلي المادي، فافتقد الشاعر هناك روح الأخوة والمساعدات الإنسانية، ولذلك التفت شاعرنا إلى الشرق منبع الديانات السماوية والفكر والعدالة والإخاء ليعبَّ من كنوزه وأسراره وصفائه في هذه القصيدة، فإذا كان الغرب يمتلك وسائل القوتين العسكرية والاقتصادية فإن الشرق يحمل بيديه مشاعل الهداية والنور والإخاء، والقصيدة بمجملها تستهدف غرضاً إنسانياً نبيلاً،

وهو أن الناس متساوون في جوهرهم، فقد ولدوا من أصل واحد، وسيعودون في نهاية الأمر إلى مكان واحد، هو التراب – الطين. أما ما يبدو على الناس من مظاهر الترف والغنى والتكبُّر فهو مردود إلى أمر عرضي زائل لا يستطيع أن يغيِّر شيئاً من الجوهر الذي هو الأصل.

وقد عبَّر الشاعر عن هذه الفكرة النبيلة من خلال تقانات فنية، فقد كان يستخدم مثلاً الموازنة بين حال الفقر وحال الغنى، وهذا ما لاحظه القارئ في معظم القصائد، ثُمَّ يتوصَّل إلى نتيجة واحدة، وهي أنَّ طبيعة الإنسان واحدة سواء أكان غنياً أم فقيراً، فولادة الإنسان ونشأته ومراحل حياته واحدة، والآلام والآمال والأحلام واحدة عند الغني والفقير، إلى غير ذلك من هذه الموازنات التي استمرت في بنية القصيدة.

وقد عبَّر الشاعر أبو ماضي عن فكرته أيضاً من خلال التصوير الحسي الحي، فهو لم يلجأ إلى فكرة ذهنية مجردة، وإنما حاول أن يكسو فكرته بالصور ويوضحها بالبراهين الدامغة، وهذا ما فعله في المقطع الأخير في هذين البيتين اللذين يذكِّران القارئ بحكاية قاضي البصرة المتكبر والذبابة في رواية الجاحظ:

أجميلٌ؟ ما أنت أبهى من الور دة ذاتِ الشذى ولا أنت أجودْ

أم عزيزٌ؟ وللبعوضة من خد يك قوتٌ، وفي يديكَ المهنَّدْ

وعلينا أن نتوقف أيضاً في هذا المجال عند السهولة اللغوية، فالأبيات تتثال انثيالاً، ويأخذ بعضها برقاب بعض، وهذه سمة غالبة على الشعر المهجري، فلغة الشاعر قريبة هنا كل القرب من لغة الحياة اليومية، ولكنَّه لم يتخلَّ عن فصاحة الكلمة، وإنَّما جعلها في حركة بعيدة عن الوعظ والتعليم والتقرير والرتَّة الخطابية الحماسية، والتجأ إلى الرقة والهمس والمعالجة العقلية الشاعرة التي جعلت ناقداً مثل مُحَمَّد مندور يصف الشعر المهجري بالمهموس.

وفي النص نزعة حنين إلى الطبيعة، وهي في القصيدة غنية جميلة حرَّة كما هي عند الشعراء الرومانسيين، ومن جميل هذه النزعة في القصيدة وصفه للروضة الجميلة والماء والطير والأزاهير والندى والريح وطيور الأراك والنهر والنسائم والشهب التي تستحمُّ في النهر ليلاً وكأنها تتبرَّد، إلى الحقل والنحل والنمال، وغير ذلك مما احتوته هذه القصيدة التي تكاد تكون قصيدة الطبيعة بامتياز.

وتتميز هذه القصيدة بوحدة الموضوع، فالطين الذي هو الإنسان نفسه هو عنوان القصيدة وموضوعها الوحيد، وهي تتميز بالنظرة الشمولية، فالشاعر لا تعميه المادة والمحاسن الزائفة عن الحقيقة الساطعة، ولا ينظر إلى الكون من خلال المغريات، وإنما ينظر إليه من خلال نظرة عميقة فيها من التأمل ما فيها،

وفيها من الانشغال بروحانية الشرق والحنين إلى صفائه وجوهره ما فيها، وهو ينظر إلى الحياة بعين بصيرة وقلب خبير، لا تسيطر عليهما المغريات، وفي نظره أن الإنسان مخلوق ضعيف، وإن تظاهر بالجبروت والقوة، فهو أضعف من أضعف مخلوقات الله تعالى، فالبعوضة تقتات على خدّيه، وهو عاجز عن ردّها مع أنّه يمتلك المهند الصارم القاطع، وهو عاجز عن تغيير أي أمر يسير في مجريات الكون، وهو إن شيَّد القصور وسيَّر الطائرات الحربية عاجز عن أن يسيِّر الرياح لو يوقفها، أو أن يوقف الغيمة الماطرة فوق أرضه وحدها.

ثالثاً: المستوى اللغوي:

استخدم الشاعر أساليب مختلفة في هذه القصيدة، وأهمها الاستفهام الاستنكاري لغرض الإقناع بمودّة وحب، وهذا الأسلوب منتشر في القصيدة، ومنه (أ لك القصر؟ – أ لك الروضة الجميلة؟ – أ لك النهر؟ – أ لك الحقل؟ – أ جميل؟ – أم عزيز؟ – أم غني؟ – أم قوي؟ ... الخ)، كما استخدم أسلوب النداء المحبَّب في حالي التقرب من أخيه الإنسان أو ردعه عن غيه، ومن أمثلة ذلك: (يا أخي لا تمل بوجهك عني – أيها المزدهي – أيها الطين لست أنقى ... الخ)، واستخدم أيضاً أسلوب الأمر والنهي في كثير من عباراته لأغراض مختلفة: (امنع الليل – انظر النور – الجم الماء – امنع الشيب – لا تمل بوجهك ... الخ)، وفي النص أساليب أخرى يستطيع الطالب أن يعود إليها في المقاطع.